

## الفصل الاول

### طفولتي

كان ابي وجدي عاملين من عمال المناجم، فترسبت خطاهما، ونشأت عاملاً كادحاً. وكما عدت بذكر ياتي الى اعماق اعماق ماضي، طالعتني حياة العامل الحثينة: كثير من المتاعب والجهود، وقليل من السعادة؛ وكما راجعت طفولتي، اطلت منها صور المنجم الكتيب، ومداخل مربعات الآبار، وسعي عمال المناجم المجهدين، سعياً كليلاً حثيثاً، وسيرهم المتباطيء، في عمق عدة مئات من الامتار، تحت الارض. وفي بعض الاحياء، تبلغني انات الكمان، واهازيبج السباق، والحان الدوكاس ( وهو من اعيادنا الوطنية، في الشمال ) على هذه الشاشة الرتيبة الشاحبة، من الصور والاحداث، وعلى نحو اعظم قوة، وأبلغ جراحاً، يرسم مرور العربات السود والحضر، المملطخة بسواد الفحم، وحمرة الدماء، ويستطيل وراءها منظر النعوش الحثيية البيضاء، المصفوفة في العنابر، ثم ارى رجالاً ونساء واطفالاً، يتراكضون الى كل ناحية وحوب، ويتصادمون

ويتدافعون ، ويعودون ، دائرين على انفسهم ، في مكان واحد .  
ورجال الدرك يجرسون الابواب حيث تتكسر موجة من  
الجمهير اللجة الصاخبة . ثم تتصل ذكرياتي ، وتتعلق ، وتتضح ،  
فالاحداث ادق خطوطاً ، والالوان اكثر ضياءً ؛ لقد بلغت  
السادسة من العمر ، فقد ولدت مع القرن العشرين ، تقريباً :  
في ٢٨ نيسان سنة ١٩٠٠ .

في يوم مثل سائر الايام ، كنت مع بعض صبية المنجم ،  
فاستأثر بانتباهنا دوي أصم ، وخطى مسرعة ، ووقع  
حواقر بعيدة ، على بلاط الطريق . . . وكان الناس يندفعون  
مسرعين في اتجاه واحد . فانضمت اليهم . وكان يطربني ان  
اعدو كالمهر ، واتخطى الشيوخ اللاهثين ، والنسوة يحملن  
رضعاهن على ايدين الهزيلة ، وكان الصراخ يتعالى :

— ذلك في كورنار . . . في حفرة ميريكور . . . هناك  
١٣٠٠ قتيل . . . وهكذا في العاشر من آذار سنة ١٩٠٦ كنت  
اعدو ، وسط الضباب . القارس ، بأسرع مما تحتمل ساقاي  
الصغيرتان ، مجتازاً الكيلومترات السبعة التي تفصل نوائل غودو  
عن مناجم ميريكور ، على طريق لان . وكان عمال المناجم ،  
في القرى المجاورة ، يتركون اعمالهم ، وينضمون الى الجماهير  
الزاحفة ، فالرجال والنساء والاطفال يتدافعون ويتصاحون ،  
ويعجن بعضهم بعضاً ، متخالطين ، منطلقين ، فكانهم جيش  
مدحور ، يستطيل عليه ظل الموت . . .

وبلغت ميريكور ، فتم ار شيئاً في البدء . ثم تبينت موجة الجماهير وقد تحطمت على حاجز حديدي شاهق ، يتوسط جداراً طويلاً ، من القرميد ، ووراء الجدار ، كان يصطخب رجال سود ، على رؤوسهم قبعات العمل ، ويبدو عليهم أنهم منهمكون في معالجة آلات غريبة ، وكانهم يصارعونها ؛ ومن بعيد ، تبدو أبراج المنجم الخشبية ، وبكرات الآبار الهادئة الجامدة ، من خلال الضباب .

وكانت نهم على المشهد المرعب ، رائحة الدخان المبتل ، ورائحة الأشياء المحروقة ... وماهي الا ان تصاعد النجيب والصراخ ، وتصاعدت الشائم والأناث ، واخذت النسوة يقطعن شعورهن منتحبات هائات ، وحدثت هزة . وحركت الجموع رغبة في اقتحام الحاجز ، واخذت الابواب عنوة . فهجم رجال الدرك الفرسان ، وحملوا بنجولهم على الجموع المحتشدة . ولكن هذه الجموع ، المتزايدة بلا انقطاع ، لم تتراجع قيد انملة ، ولم تتخل عن شبر واحد من الارض . وتعالت صيحات حادة ، من هنا ومن هناك :

— اخبرونا بالحقيقة ! قولوا لنا ماذا حدث ! دعونا نر ! دعونا ندخل !

— زوجي في قعر المنجم .

— واولادي ايضاً .

اهلي جميعهم هناك .

واذكر اني عدت اثر ذلك ، مع سائر الاطفال ، الى القرية ، وقد الم بنا الجهد والهم ، فلبتنا مدة طويلة ، لا نلهو ولا نتشاجر .

وبعد ايام عدت الى ميريكور ، وكان ثمة رجال درك كثيرون . وكان الناس جميعاً يرتدون الثياب السود . وفي جميع المناجم ، وحول المساكن ، وعلى عتبات الاكواخ ، كانوا يجهدون بالبكاء ، اما الاطفال فيحفون بأمهاتهم خائفين ، ويتشبثون باثوابهن . وكان المشهد هو نفسه في القرى المجاورة ، في سالومين ، وبيلي ، وفي كل مكان ، تحولت العنابر الى معابد تغص بالموتى وبالصلوات . وكان الناس يتحدثون ، معبرين عن اعترافهم بحميل فرق الاسعاف القادمة من وستفاليا ( المانيا ) ثم سارت ، تحت الثلوج الهاطله ، تلك الجنائز الكثيرة ، ومواكب الضحايا من التعساء ...

وحركت هذه الكارثة الرهيبة البلاد من اقصاها الى اقصاها . فمئذ زمن طويل ، وشعب عمال المناجم الاسود ، يشكو تلك الاجور التي لا تعين الا على الموت ، ويشكو العمل الشاق المستعبد ، ووسائل الضمان الهزيلة ، وبدأ الغضب يهدر ويلعلع ، مهدداً الشركات . هاهم الف وثلاثمئة عامل سقطوا قتلى ، بعد ان عانوا في اعماق المناجم احوال النزوع والاختناق ،

وذلك كله في سبيل ان تزيد ارباح الرأسماليين النخاسين .

ولم ينقض على دفن الضحايا من العمال ، الا قليل ، حتى  
النشأت الشركات الجشعة تطالب بين بحل محلهم في اعماق الارض ،  
وكأنها تطلب ضحايا جديداً . وسرى اليأس والتمرد من كوخ  
الى كوخ ، والتنظم الجماهير التي نجت من الموت ، رفضاً واحداً  
مشتركاً ، وأعلن الاضراب .

وسرعان ما اطبق على حوض المناجم جيش لا يختلف  
كثيراً عن جيوش الاحتلال .

وبدأت تتشكل في القرى جماعات و فرق من العمال ؛  
واحتلت الطرق مواكب غفيرة ، ولم يكن شأنها شأن الجماهير  
اليائسة ، المدحورة ، التي رأيناها في العاشر من آذار ، بل كان  
ثمة رجال مقطبون ، ذوو نظرات قائمة ، يصرخون مستنكرين ،  
او يتحدثون ، بأصوات خافتة ، عن اولئك الذين يرقدون  
رقادهم الاخير في المقبرة .

وكانت احدى هذه التظاهرات تندفع في الطرقات ، رافعة  
امامها العلم الاحمر ، فاصطدمت برجال الدرك ، على  
طريق هينين لياتار ، وفي ذلك اليوم ارادت امي الذهب  
الى السوق ، وكنت في رفقتها مع اخي واخي . وانضمنا الى  
التظاهرة ... وفجأة حدث في المقدمة توقف سريع ، وسمعت  
صرخات ، وصفارات ، وهزات عنيفة تسري في الجماهير ، ثم

اشتدت المفاجأة حين بدأت الخيل تشق الزحام منطلقه بأقصى سرعتها ...

واقترب رجال الدرك وهم يطلقون النار ، وفقدت عن امي ، ثم أخذت في النيار ، وسقطت بين الأقدام ، وفقدت المقاومة فانطرحت ، وكانت تمر فوق رأسي ظلال الجياد العالقة ...

نهضت وانطلقت الى فجوة باب من الابواب ، أمتنع فيها ، فرأيت عملاقاً يسل سيفه ويدفع مطيته وسط جماعة من المتظاهرين ، وتشبث بعض المضربين ، بأعنة الجياد ، ولجأ البعض الاخر الى الخنادق والابواب ، وبدأت الحجارة تنهال على رؤوس الدركيين ، ومن بعيد ، ظهر جنود الجيش ، يشرعون الحراب ، ويؤلفون صفاً أزرق واحداً يقذف الموت والحراب ...

وظل الجنود طوال النهار ، يقومون بدورياتهم في قرينتنا ، فيلقون من النوافذ الى داخل البيوت نظرات وقحة . واسدلت امي الستائر ، ولبثنا في البيت ، يغمرنا الظلام ، ويبلغ مسامعنا من بعيد ، صليل السيوف . واوقف كثير من المتظاهرين ، وجرح آخرون .

واستمر الاضراب ما يناهز الشهرين ، شهرين من البؤس الفظيع ، والحرمات العاتي ، شهرين من العذاب والنقمة؛ ذلك كان مصير عمال المناجم : العمل الحائق انتهك ، والجراح

والانبيارات ، ونجار الفحم ... واذا اجهدهم البؤس فجاروا  
بمصيبتهم ، تدخلت القوة المسلحة لتعيدهم الى الصواب .

وفي اثناء الاضراب بذل جدي كل ما كان بوسعه دون  
حساب ؛ وكان مناخلاً عمالياً قديماً ، التحق منذ الساعة الاولى  
بنقابة العمال التي اسسها ببلي . وكان يلذني الاصغاء اليه ، وهو  
يروى قصة حياته ومعاركه ... حياته ؟ لقد تقضت كلها في  
ليل الحفر ، ولكنها كانت اسطع ضياء واصفى شمساً من كثير  
من السير التي مرت تحت ضياء النهار ... لأنها كانت تتألق  
بجبه العارم لنقابته وللطبقة العاملة ، وكان يملأ قصصه حركات  
الاضراب الجديدة ، والمعارك والجهود ، وحركات الصمود  
الباسل العنيد في وجه اصحاب المناجم والمصانع ، وفي وجه  
رجال الدرك والجيش ، وكانت كلها ذكريات تحملها الحماسة على  
جانحها ، وتصفق فيها كما تصفق اعلام الحرية ، أسماء ببلي وغيد  
ولامندان .. يا لها من ذكريات عملت في نضجي أكثر مما  
عملت الاعوام ...

كان جدي يهاجم « الاخوان » الكاذبين ، هجوماً عنيفاً ،  
ويخص بحملته النقابة الجديدة « السى جى تى » وهي التي نشأت  
لمناهضة نقابة ببلي ولامندان الثورية ، وكانت النقابتان قد  
دخلتا في نزاع عنيف ، وتناحر هائل ، وكان القتال ينشب  
احياناً بين العمال ، ولم اكن لافهم حقيقة الاسباب التي التبت  
هكذا فريقاً من عمال المناجم على الفريق الآخر . واكثرتني

كانت معجبةً بهذه الحياة المتضجرة ، الملأى الى اعلى درجات الامتلاء . وبهذه الخطوة التي تبذل كل يوم في خدمة المثل الاعلى للعمال . وكان جدي ورفاقه يزورون المناجم والاكواخ ، بلا انقطاع ، ودون ان ينال منهم الجهد ، باحثين عن رفاق جدد يضمونهم الى النقابة ، وكانوا يناضلون في سبيل كل انسان ، ويحاولون ان يكسبوا الافكارهم واحداً واحداً ، عمال المناجم جميعهم ، هادفين الى انتزاعهم من وهدات الجهل واللامبالاة والخضوع ، فكانوا يصطدمون ببلادة البعض ، وبخوف البعض ، وبكراهية اصحاب الاعمال وتهديدهم ، وبانقسام الطبقة العاملة ، ولكن ما كان يثنيهم عن نضالهم شيء .

\* \* \*

كنا نسكن منزلاً يشبه المنازل العمالية برقابه واتباعه صفوفاً طويلة من البيوت ، التي كانت تضيف الى كآبة سهول الشمال كآبة سوداء ، بما تقذفه مداخنها من الدخان الاصفر والاسود ... في اوائل هذا القرن ، كانت نوايل غودو قرية لا يتجاوز عدد سكانها ٣٠٠٠ نسمة وكلهم من عمال مناجم الفحم ، او صهر الحديد ، او من الفلاحين الفقراء ...

وكان المنجم ذو الرقم ٤ التابع لشركة «دورج» يستخدم اكثر من الف عامل قبيل الحرب العالمية الاولى ...

وكان جدي يعمل في المنجم ، ووالدي في المصنع ، وسرعان

ما ألم به مرض عضال لتعرضه ، مثل سائر العمال ، لبخار  
الرياح ، لقد اراد ان ينجو من بخار الفحم فالتحق بالمنصع  
وكانه نجاً من « الجحيم الى الجحيم » ...

بلغت الرابعة من عمري ، فدخلت مدرستي الاولى .  
وفي العام التالي حدث لي حادث عظيم ، اول مرة في حياتي .  
فقد أقيمت خطاباً امام كثير من الناس ، ولكن كان ذلك  
- طبعاً - في حفلة اطفال ، وبمناسبة عيد مدرسي .

كنت احيا في البيت كما اعتاد امثالي من ابناء العمال ان  
يجيوا . فما ان يشب الطفل عن الطوق ، ويبلغ سن الرشد ،  
حتى يتحتم عليه معونة اهله . وسن الرشد يلم مبكراً بابناء  
الشعب .

وكان لنا اجر والدي ، وجنيته صغيرة ، وعشرون ارنياً ،  
تعتمدها امي للأتفاق على اسرتنا ؛ واحتفظت لي بالمهمات السهلة :  
فكنت انطلق الى الحقول ، لاعدود بالعشب للأرانب ، واذهب  
الى السوق ، لاشتري بعض حوائج المنزل ، واجمع السماد من  
الطرق للجنينة ، وكان علي - ايضاً - ان أعني باخواني  
الصغار ...

وكان يتخلل شقاءنا اليومي بعض بوارق الفرح : وهي ايام  
الاعياد وعيد الدوكاس الوطني بحاجة . آه ما كان اعظم لهفتنا  
في انتظار الدوكاس ، اذ نستبق مواعده بزمن طويل ! وما ان

تبدو عربة العيد الاولى حتى نفقد الصبر . وعند خروجنا من المدرسة ، كنا نسارع محتشدين لمشاهدة ألعاب الخيل ، ومباهج العيد . وكان اكثرنا جراًة يلمس أنوف الجياد الخشبية ، ويشدها من ذبولها . وهي ذبول من شعر الخيل الحقيقي ! وما اسعد من كان في جيبه فلس ليمتطي الجواد الخشي مرة ! وم كانت سعادتنا بسماع الاطمان الموسيقية ، ودوي طلقات الرماية ، وصرير دواليب اليانصيب ، وتجاوب ابواق القرية ، واغاني الشاربين المرحه... لقد كنا نعيش يوماً او يومين في حمى السعادة الغامرة... ثم تستعيد الحياة مجراها الكئيب...

وكان يشغل اسرتنا ما يشغل جميع اسر الفهال ، وكانت الاحاديت في بيتنا تكاد ان تنحصر في الصعوبات المادية ، فالاسعار ترتفع بلا انقطاع ، وفي ايلول ١٩١٠ نشأت حركة تكافح غلاء الاسعار في حوض المناجم .

وكانت ربات البيوت يركضن من باب الى باب ، ويهينن الرأي لانتفاضة شعبية نسائية . وكانت امي من اشدهن حماسه . وقد عينت ، في احد الاجتماعات ، مندوبة عن نساء نوايل غودو .

وسارت تظاهرة كبرى في طرقات البلدة ، يتقدمها العلم الاحمر وهي تطالب بـ :

— الزبدة بـ ٣٠ فلساً الكيلو .

– والمبلن بـ ٥ فلوس

– والبيض بـ ٢٦ فلساً الدرينة .

وكانت المتظاهرات ينطلقن من حانوت الى حانوت ليطلبن الى التجار التقييد بهذه الاسعار .

وازمعت وبات البيوت يوماً الذهاب الى سوق هينين لياتار . وما إن وصلن حتى نشبت المنازعات بين البائعين والشاريات . وقلبت احداهن واجهة للبضائع . وكانت شارة الهجوم . وتطارت في الهواء من كل ناحية ، حبات الجزر واللفت والبطاطا والثار ! اما نحن الصغار ، فكنا نقفز في سلال البيض واقدامنا مجتمعة . واشتركنا في المعركة ، وكانت طلقاتنا مؤلفة من كل ما يقع في ايدينا من بقايا هذا التخريب المرع ، بجميع الطيبات التي كانت تعز على جيوبنا ...

وما كان لنا ان نفهم يومئذ ، ان المسؤولين الحقيقيين عن ارتفاع الاسعار ، هم كبار الرأسماليين ، وتجار الموت الذين يكتزون الذهب والفضة ، اولئك الذين نجحوا في تحويل نقمة المستهلكين وغضبهم الى صغار التجار واصحاب الحوانيت والباعة المتجولين .

\* \* \*

وبلغت السن التي يبدأ فيها ابن العامل يكدح عند الآخرين ليعود على أهله ببعض الدرهمات ...

وكان الفلاحون في القرية يستأجرون الصغار لشريفة الحقول .  
كنا نمضي في الحقول ، جماعات جماعات ، وآلة الشريفة في  
أيدينا ، متباعدين بعضنا عن بعض مسافة مترين ، وعيوننا  
مثبتة الى الارض ، لنقطع الاشواك المضررة والاعشاب الطفيلية ،  
وكنا ننطلق طوال النهار من شروق الشمس الى غروبها ،  
مستغرقين في اعمالنا ... وكان صاحب المزرعة يراقب هذه  
الاعمال فيما بعد... وكان العامل الصغير منا يكسب ١٤ فلساً  
في نهار عمل مؤلف من ١٢ ساعة .

كان يصاحب دراستنا ، في معهدي الاول ، تعليم ديني ،  
ولم يكن اهلي يهتمون كبير الاهتمام بالدين . ولكن كان  
من عادة العمال ان يعتمدوا الاطفال وان يتناول هؤلاء القربان  
المقدس . وكان الكاهن قد اختارني شماساً ، ومرتل جوقة ،  
فأعاني هذا الاختيار على توفير بعض الفلوس لاهلي .

وافتححت في تموز ١٩١٢ مرحلة جديدة من مراحل حياتي ،  
اذ قدمني استاذي السيد افيرلان الى امتحانات الشهادة الابتدائية ،  
فكنت الاول بين الناجحين ، وهكذا اتيح لي ان ابدأ العمل  
في المنجم قبل بلوغي الثالثة عشرة .

دخلت المنجم عاملاً في تنقية حجارة الفحم ، في الحفرة رقم ٤ ،  
ولم يكن عملي شاقاً ولكنه كان يتطلب انتباهاً شديداً . وكان  
الفحم يصل الينا على لوحة معدنية كبيرة ، وكان علينا المسارعة

الى نزع الحجارة منه وكان عامل التنقية الماهر يتوصل الى كسب  
٢٥ - ٣٠ فلساً في النهار .

وفي الرابع من كانون الاول ، كان عمال المناجم يحتفلون  
بعيدهم التقليدي وهو عيد السانت برب . وفي الاسبوعين  
الاخيرين من تشرين الثاني ، كانوا يعملون خلال ساعات اضافية ،  
ليزيدوا في مكاسبهم . وكان من الطبيعي ان اقتدي برفاق  
العمال ، فربحت خلال الاسبوعين ثلاثين فرنكاً بعدد ١٢ - ١٣  
ساعة عمل يومياً .

وفي تشرين الثاني ١٩١٣ ، حين عاد اسبوعا السانت برب ،  
اعلن العمال الاضراب . وقد سمي هذا الاضراب باسم العيد .  
وكانت نقابة بيبي القديمة قد اندمجت في نقابة السي . جي . تي . ولم  
يستمر الاضراب المشترك طويلاً ، ولم يتجاوز بضعة ايام .  
وانتصر العمال واضطر اصحاب العمل الى التقييد ببدء الـ ٨ ساعات  
للعمل اليومي في اعماق المناجم .

وكانت عناصر اللهو والتسلية قليلة في القرى ، فانضم كثير  
من الفتيان الى الفرقة الموسيقية البلدية ، وتعلمت انا النفاخ في  
البوق . وكنا نعتز بقبعات رسمية جميلة ، ونمر صفاً صفاً  
في الطرقات ، عازفين اعذب الالحان ، وكنا نرتحل احياناً الى  
القرى المجاورة والمدن ، لنقدم هناك اغانينا ، ونطرب سكانها  
بروائعنا .

وهكذا كانت فرقة الموسيقى البلدية تتيح لنا بعض الرحلات السعيدة ، وبعض السياحات الى شواطئ البحر ، وما كانت تكافنا الا حضور التجارب ، والنفع في الأوقات...

وفي اواخر حزيران ١٩١٤ اعلن رئيس الفرقة ، بعد احدى هذه التجارب ، نبأ مؤامرة سيرا جيفو . واحس البعض بخطور الحرب ، ولكن اكثرية الناس كانت لا تؤمن بإمكان وقوعها :

— « الحرب ؟ ليس ثمة من حرب ! فهي مستحيلة في عهدنا الراهن ! فان نشبت فلن تستمر اكثر من شهر ، بسبب الوسائل التي تستخدمها الجيوش الحديثة... وسيبقى الناس جميعاً..

وفي يوم السبت الاول من تموز ، اعلن الناطور ، بجرسه ، النفير العام . وتجمعت الجماهير امام الاعلانات ولوائح الاسماء ..

وفي اليوم الاول ذهب عمي ليون . ولم اره بعد ذلك . واعلن فقده سنة ١٩١٥ في « بوسيجور » . وجرح عمي الآخر ادمون ، في الاسبوع الثالث من الحرب ، في معركة مورانج ، وأسر ثم عمل في مناجم سيليزيا ومات في الاسر .

بعد اعلان نبأ الحرب ، تابعنا العمل في المنجم عدة ايام ، ولكن كان عدد العمال يتدنى كثيراً ، ثم توقف كل شيء ، وتلقينا الأوامر باخراج ادوات العمل من المناجم ...

واستبد القلق بالقرية كلها . وكانت الانباء سيئة جداً . وكنا نظن في البدء ان الحرب تجري بعيدة عنا ، على بعد مئات

من الكيلومترات نحو الشرق ، في الالزاس واللورين ...  
ولكن اكتساح الالمان بلجكا ادهشنا واذهلنا . فقد سقطت  
قلاع نامور وليساج في ايدي الالمان ، وكنا نعدّها امنع من  
ان تؤخذ .

وفي ذات صباح سمع دوي المدافع ، واعننت رؤية دورية  
من الفرسان الالمان ، وكان ذلك في ٢٦ حزيران ، وفي اليوم  
التالي مرت الجيوش الالمانية في اتجاه لان .

وفي ٣٠ ايلول كان سباق الجيوش الى البحر مستمراً ،  
فتركت نوايل مع جدي ، وكانت السلطات تجند جميع الرجال  
الذين تتراوح اعمارهم بين ١٨ و ٤٨ عاماً ، بل جميع القادرين  
على حمل السلاح . فأزمع ابي وجدي النجاة بنفسيهما ، وكان  
عليّ ان اصحبهما ، وزودتني امي بأربع قطع من النقد ، من  
فئة المئة فلس ، وضعتها في كيس ، ودسته في ثيابي . وكانت  
امي موقنة بانها لن تلبث الا قليلاً حتى تراني ، واراد ابي ،  
قبل مغادرته البيت ، ان ينزل محصوله من البطاطا الى القبو .  
وتواعدنا على اللقاء في بون افندان ، وهي اول مرحلة على  
طريقنا ، ولكن هذا لم يكن ممكناً . فبعد ساعات من مغادرتنا  
القرية احتلها الالمان ، وكان عليّ ان انتظر اربعة اعوام للقاء  
اهلي .

ولبثت طوال هذه المدة دون ان اتلقى شيئاً من انبائهم ،  
وهم ايضاً لم يعلموا شيئاً عن مصيري ؛ اما قريننا ، وهي واقعة

على حدود المنطقة المأهولة ، وراء الجبهة الألمانية مباشرة ، فقد تحولت الى خرائب ، عند نهاية الحرب ...

وهت مع جدي شهراً كاملاً ، في الطرقات ، يدفعنا مد الجيوش وجزرها تتأرجح بينهما في الآفاق . وتعرفنا الى كل ناحية في البادي كاليه والشمال ، وآرمانيتير ، وسان بول ، وباتون ، ثم كنا نعود ، دائماً ، الى تلك الامكنة لا نريد مبارحتها ، وكانت الحرب تطردنا منها بلا انقطاع ... وكان رجال الدرك يطاردوننا ، ويدفعوننا ، قاطعين علينا الطريق الى منطقة الجبهة ، ولكننا نعود ، فتلك المنطقة الدامية المكتسحة ، المنقلبة رأساً على عقب ، كانت رغم ذلك كله وطننا .

كنا اذا حل الليل ، تنام في مخازن المؤونة ، ونغتذي بالبطاطا التي نقتلعها من الحقول . وكان الجنود الانكايير الذين نصادفهم في الطريق ، يقاسموننا ما معهم من اللحم المحفوظ . ولجأنا يوماً الى عامل مناجم اشتراكي ، ولبثنا في ضيافته عدة ايام .

لقد عرفت الحرب : لا حرب اللوحات الزيتية وملاحم الشعراء . لا حرب قصائد « ديروا ليد » الحماسية ، بل الحرب الفظيعة ، ملتزمة الرجال ، وزراعة الرعب والموت ...

الحرب التي عرفتها هي الحرب الحقيقية : المنزل المنقود ،

وحياة التشرّد في الطرقات ، بلا سقف يُفاء اليه ، ولا خبز  
ولا مال ولا عمل ، انها المدفع النمساوي الرشاش واعقاب  
البنادق في ايدي رجال الدرك الغلاظ... الحرب التي عرفتها ،  
هي الجنود القتلى المساكين الممدّدين في الحفر على جوانب  
الطرق قريباً من جثث الجياد... الحرب... هي الحقول  
المهجورة، والقرى الكئيبة الخالية، والبيوت المتناثرة الاحشاء ..  
وعربات الاسعاف المملأى بالجرحي والمحترجين... والحرب ،  
بخاصة ، هي ذلك السيل الطويل، الممتد بلا انقطاع ، ولا نهاية ،  
يظهر فجأة على الافق المشتعل بجمرة الحرائق ، هذا النهر الذي  
يجر في تياره النساء والاطفال والشيوخ ، مع عدد لا يحصى من  
الاكياس القذرة المملأى بالخبز اليابس العفن ، او هذا النهر الذي  
يدفع امامه العربات المملأى بالاثاث المخلع الحخير ، والفراش  
المتناثر صوفه ، والوسادة الهزيلة... حين تتحب النساء ،  
والاطفال يتشبثون باذيالهن ، وبعضهم يغمغم بكلمات غير  
مفهومة... لا تتغير... والشيوخ يقضمون الخبز اليابس ذاهلين..  
في تلك الايام اقسمت على النضال بجميع ما اوتيت من قوة ،  
وكفاح هذه الكارثة الانسانية البشعة ، ومناضلة اولئك الذين  
يبيثون لها ظروفاً ويعيشون منها ويتاجرون..

لقد اقسمت على الدفاع عن الشعب ، وهو الضحية الخالدة  
للحروب...

\* \* \*

وفوجئنا يوماً بين نو - ليه - مين وفركان ، بلعلعة المدافع  
الرشاشة ، ونظرت فاذا نحن في غمرة المعركة ، فايقتت جدي  
النائم في فجوة بين الصخور على الاوراق اليابسة ، وانطلقنا في  
الظلام المخطط ببروق الموت .

كنت قد انفتحت قطعتين نقديتين من القطع الاربعة التي  
زودتني بها والدتي ، وكنت احمل القطعتين الباقيتين في كيس  
علقته بعنقي .. ويوماً لم اعد اشعر به ، فتحسسته فاذا به ممزق ...  
هكذا فقدت كل ثروتي !

واخيراً قبض علينا رجال الدرك ولم يعباوا بصياحنا  
واحتجاجنا بل قادونا في اول الامر الى سراي اوشل ثم «عبأونا»  
في سيارات كبرى ، مع مساكين آخرين ، مجمعين عن الطرقات ،  
وبلغت السيارات بنا بلدة سان بول ، وهناك كوتومونا في  
مركبات لشحن البضائع ، - وكنا ثمانية جياذ واربعين رجلاً -  
واهتز القطار وتحرك في بطاء ووجهته اواسط فرنسا . ولم  
أنفصل عن جدي ، بل كنا مندفعين الى المجهول جنباً الى جنب ،  
وكانت القطارات تملأ بالجنود ، لقد تركنا الجبهة وراءنا  
ولكن الحرب كانت ماثلة لعيوننا وكأنها تتعلق بنا ...

بعد رحلة استمرت خمسة ايام طويلة حسبنا انها لن تنتهي ،  
توقف قطارنا في غيرهه ، في «الكروز» . وبلغناها في الثاني من  
تشرين الثاني وكان «يوم الموتى» ، ثم اتجه قطارنا على خط ضيق  
وكان يتروك في كل محطة بعض ما في جوفه من لاجئين ، ونزلنا

انا وجدني في محطة جينوبيا ، واقتادونا مع سبعين لاجئاً آخر الى مديرية كالونيا .

وفي القرية افردوا لنا بيوتاً وجعلوا كل اربعة لاجئين في غرفة . وكان السكان يعطفون علينا غاية العطف ، فيجهدون ليجعلوا منفاتنا اخف وطأة وارحم داراً .

كانت تلك البلاد رائعة الجمال . فهي مكسوة بالغابات ، كثيرة التلال والوديان . كانت رباهما ضاحكة مشمسة تنفجر منها زقزقة العصفير ، وخرير الينابيع ، وكانت تؤلف تناقضاً ظاهراً مع سهول الشمال الكئيبة الغائمة .

وحل الشتاء مطيراً بارداً . فلم يكن ملائماً للنزهات الطويلة والرحلات ، فقصدت الاستاذ سيليريه في كالونيا ورجوته ان يجعلني في عداد تلامذته . وكنت قد تركت الدراسة منذ عامين ، رضي الاستاذ سيليريه ، وهكذا استأنفت الدراسة .

شجعني سيليريه اكبر التشجيع ، واذكى نشاطي وحرك همتي للعمل . وفي شهر آذار ١٩١٥ قدمني الى مسابقة عامة فقلت الجائزة الاولى في الانشاء . وكان الموضوع : « اي شأن من شؤون الحرب استأثر باهتمامك دون سواه » فما كان عليّ الا ان اروي ذكرياتي .

اعجب السيد سيليريه بنجاحي ، ولعله وجد فيه مادة للفخر ، فأراد ارسالي الى « غيرية » لكي اتم دراستي ، وكان يرى ان

الحظ قد يسعدني فأصبح معلم مدرسة او استاذاً في كلية ،  
فرفضت ، لقد كانت الدراسة تعجبي ولا شك ، ولكنني  
كنت واثقاً ، رغم ذلك ، بأن الحرب لا تلبث ان تنتهي ،  
وان بوسعي بعد ذلك العودة الى نوايل غودو ، حيث التقى  
ذوي ، وكانت هذه الافكار تدفعني للعمل في سبيل كسب  
بعض المال .

كان جدي يعمل في مزرعة ، اما انا فقد رضي احد  
المزارعين بأن اعمل عنده خادماً . وكنت اتناول شهرياً ١٨  
فرنكاً في الصيف ، وثمانية فرنكات في الشتاء ، مع الغذاء .

في تلك الايام نشأت معرفتي بالفلاح . لقد كنت اعرف  
العامل وحياته البائسة ومصيره القاتم ، وشجاعته في العمل ،  
وكرمه وبسالته ، الم يكن جدي امام عيني ، مثلاً دائماً  
ونموذجاً صالحاً ؟ وحين رأيت الفلاح الفرنسي ، عن كسب :  
اعجبت بفضائله الثابتة ، وعناده الباسل ، ونشاطه ، وحسه  
المرهف ؛ كان الفلاح اخاً للعامل ، اخاً بائساً مثله ، يعاني  
الاستثمار والاضطهاد مثله ايضاً ، ومثله كان ضحية معتادة  
لمجازر الحروب .

كنت انهض مع الفجر ، فاعتني بالماشية ، وانظف الاسطبل  
واقود البقرات الى المرج .

وعند حلول الموسم تعلمت الحصاد ، فكنت اقطع سنابل

القمح والذرة ، بالمنجل ، واجمعها في حزمات . وكان عليّ ان  
اقتلع البطاطا والشمندر من الارض المبتلة بأمطار الموسم ،  
وان اعمد الى الحراثة في الخريف وتمهيد الارض لبذر القمح .  
ثم حل موسم الاعمال الزراعية المتعددة : وكان الفلاحون  
ينطلقون ، واصابعهم تكاد تتجمد من الصقيع ، للاحتضاب  
من الادغال ، وربط الحزمات ، واقتلاع الاعشاب اليابسة ،  
وحوالي اواخر الشتاء ، كنا ننزع الاوراق عن العوسج ،  
ونقطع اغصان السنديان ، وننظف الحقول من الاوراق اليابسة ،  
وكانا نلبث ، امد الايام الممطرة ، في العنابر ، لكي نصلح من  
شأن الادوات الزراعية ، كالعربات الصغيرة والمعاول ،  
والمناجل والمذاري الخ... وفي السهرة كنا ننزع قشور  
الكستناء ، فالكستناء مع اللبن الصرف ، كانت طعام عشاءنا..

وتعرفت الى جميع اهل القرية ، واكثر سكان القرى  
المجاورة ، وكانوا جميعاً يعيشون حياة بائسة الى ابعد حدود  
البؤس ، عدا بعض المزارعين الموسرين ، وهم قلة . وما كان  
الفلاحون في تلك القرى يعرفون للحم طعماً ، اما ثيابهم فمهلهلة  
لا تقيهم زعازع الشتاء .

وخلال سهرات الشتاء الطوال ، كانت الاحاديث والمطالعات  
الكثيرة تذكى فضولي ، وتوقظ ادراكي ، وتستعجل نموي .

وكانت مقاطعة « الكروز » ولا تزال في طليعة المقاطعات  
وعياً وادراكاً . وكان ترتيبها في عام ١٩١٤ انها اولى المقاطعات

حيث تغلب اصوات الاشتراكيين . وكانت الافكار الاشتراكية فيها واسعة الانتشار، وكان مناخها ملتهبين حماسة واندفاعاً ، فترام دائماً في طبيعة الحركة الشيوعية، وكان الفقراء من السكان، اولئك الذين لا ارض لهم ، يذهبون الى باريس ، ليقتضوا فيها شطراً من العام ، عاملين في البناء ، ثم يعودون الى مقاطعتهم ليعملوا في الارض زمنأ آخر ، او يحركوا على انوالهم الصغيرة . وكان هؤلاء العمال البنائون اثناء اقامتهم في باريس يتمرسون بالسياسة وينخرطون في النقابة ، ويطلعون الصحافة العمالية ، ويشاركون في الاجتماعات او ينضمون الى الحزب الاشتراكي، وكانوا لدن عودتهم الى القرية ، يتابعون تطور سياسة البلاد ، من الناحية النقابية والعمالية ، ويطلعون على الصحافة الثورية ، ويشركون فيها سائر عمال البلاد وفلاحها .

كان سيدي يطالع جريدة « الاومانيتيه » ( الانسانية ) التي كانت تصدر يومئذ بادارة « رونوديل » وكان الاب ميناجيه ، وهو عامل معمار ، ذو عشرة اولاد وميول ثورية ، ينادي دائماً بان مصالح العمال تقضي بوضع حد للحرب ، لانها لم تكن ناشبة للدفاع عن الوطن ، بل انها كانت صراعاً بين لصوص وقاطعي طرق رأسماليين ، يريدون زيادة اراضيهم وارباحهم ، بعضهم على حساب بعض ، ويتعاركون في سبيل اعادة توزيع المستعمرات . وكان ميناجيه يشير الى خطب جوريس ونبوءاته ضد الحرب العدوانية على الشعب العربي في

مراكش ، وكان يردد قول الخطيب العظيم : ( تحمل الرأسمالية في كيانها الحرب ، كما تحمل الغيوم العاصفة ) .

وكان مينا جيه يهاجم فكرة « الحرب الى النهاية » ويفضح اهداف الحروب الاستعمارية ويدعو العمال والفلاحين الى المطالبة بسلم سريعة دون قيد ولا شرط... في تلك الايام العصيبة حدثني مينا جيه عن « زيمروالد » و« كيانتال » ، وهما قريتان صغيرتان ضائعتان في مجاهل الجبال السويسرية ، ومنهما ارتفعت ، اول مرة ، بين سنتي ١٩١٥ - ١٩١٦ ، ومن خلال دخان ميادين القتال الخائق ، ارتفعت اصوات فئة مجيدة من الاشتراكيين من بينهم لينين والبلاشفة ، المخلصين للاممية البروليتارية العمالية وللثورة .

هكذا تضافرت ذكرياتي والمناقشات التي كانت تدور في للسهرات ، والانباء التي تبلغني ، عن الجهود الاولى لاعادة تنظيم الحركة الاشتراكية ، فادت بي الى اتخاذ موقف حاسم ضد الحرب ، يزداد قوة مع الايام . فكنت اقرأ كل يوم صحيفة « الشعبي » حيث كان يعتبر حزب « الاقلية الاشتراكية » عن افكاره .

كنا على مئات الكيلومترات من الجبهة ، ولكن الحرب كانت ماثلة امامنا ، فهي تضاعف الضحايا من حولنا ، وتضاعف اثواب الحداد ، وتزيد في الآلام ، وتحصد ازهار شيببتنا ، وكان جدي قد فقد ولدين في الحرب ، وكان يحرم

نفسه الضروريات ، ليس كل يوم أحد رزمة من الطعام لولده  
الآخر الاسير . فهو لذلك يؤمن بضرورة النصر اما انا فكنت  
اعارض بشدة ، كل ما يؤدي الى اطالة عمر المحزنة .

كنت متعظشاً الى المعرفة ، ولذلك كنت اقرأ كل ما يقع  
بين يدي . فالتهمت كتب جول فرن ، ودوماس الاب ،  
وكتابي «البؤساء» و«العاملين في البحر» ليفكتور هيجو ، وجرمينال  
والارض والمال «لزولا» وجاكو المفترس لأوجين لوروا  
والمتنرد لجول فاليه ، وقد اعارني السيد سيليريه هذه الكتب كلها .

اما كتاب « عشرون الف فرسخ في اعماق البحار » فقد  
أهب خيالي ، وكنت اعجب بطباع القائد نيمر - بطل هذه  
القصة - اكثر من اعجابي بمغامراته الخيالية . وكان يمثل في  
نظري عبقرية العلم الحارقة المجهولة التي تنتصر على كل شيء ،  
عبقرية العلم التي ستغير الكون والناس حين تغدو حقاً في خدمة  
الشعب .

ثم تحولت الى كتاب « الكونت دي مونت كريستو » ،  
واكبر ما اعجبني في هذه القصة دور المال في المجتمع ، واهميته  
القصوى ، فبعد اكتشاف الكنز ، اصبح دانتييس انساناً كاملاً ،  
وموجد عدالة ...

و كنت احب ايضاً طيبة جان فالجان ، ضحية مصيره الغاشم  
وكان في البؤساء ، بخاصة ، شخصية غافروش ، غافروش

العجيب ، الذي يتحدى الجيش من خلال الحواجز والبيوت ،  
غافروش الصعلوك الذي كان يعني ، فترتفع اغنيته لتطفئ على  
طلقات البنادق ...

وملأني وصف البحر وصراع جيليات في كتاب « العاملين  
في البحر » حماسة ونشوة ، وكان الهدير الوحشي يبلغني من  
خلال صفحات هيجو الملهمة ...

ومرت الاعوام ... وجدي يعاني كآبة الوحدة ، في عزلته  
بالريف ، بعيداً عن موطنه القديم ، وهو على رغبته الشديدة في  
ثأر ساحق ماحق ، وهزيمة نهائية يمني بها الاستعمار الالماني ،  
دفع رغبته في رؤية غليوم الثاني « المحتال » مشوقاً ، فقد  
كان - مع ذلك كله - يتمنى سرعة انتهاء الحرب ليعود الى  
بيته وأهله ، وخانه الصبر ، ولم يبق في وسعه الاحتمال ، فأزمع  
مغادرة « الكروز » ، والدنو من الشمال . وفي الثالث  
والعشرين من آذار ١٩١٧ ، ركبنا القطار من بوساك ووجهتنا  
باريس .

ورأيت باريس اول مرة ، في غمرة الحرب . وكان الالمان  
على بعد ٧٠ كيلومتراً من العاصمة ، والطائرات الالمانية تخلق في  
سماؤها من حين الى حين ، ملقمة قنابلها ؛ وكان جو العاصمة  
متوتراً كثيباً ، وذهبنا الى مركز اعاشة اللاجئين ، القائم في  
اكواخ حقيرة خربة ، وفي المساء رحلنا الى اميان .  
ووجدنا عملاً في دروي لي اميان ، في منشرة للخشب ، حيث

كان يعمل ايضاً قريب لنا لاجيء مثلنا من الشمال .

صعدنا الى مركبة التطار مع جنود عائدین الى الجبهة ، بعد انقضاء ايام عطلتهم ، وخطابين يقصدون العمل حيث تقصد . وكانت الرحلة فظيعة بائسة ، فالجنود سئموا الحرب ، وانتابهم القرف واكثر من القرف ، وكان اكثرهم يتمنى « الجراح البليغة » التي تتيح له النجاة من ذلك الجحيم .

وفي بلدة دروي طلب الينا برونييل صاحب العمل ان تقود سفينة صغيرة لنقل الخشب ، وكانت تسمى « فرنسا » فكنا نتقل بها بين كوربيار وافييل ، طوال نهر السوم ، موسوقة بالخشب ...

وسرعان ما تعلمنا الامساك بالدفة ، ورمي القلس الى قائد الجياد التي كانت تبحر سفينتنا ، واستخدام المرساة ، والاشراف على وسق السفينة ، وكنا نوقد في غرفة صغيرة ، وبتناول طعامنا على متن المركب ، فان لم اكن يومئذ لا القائد نيمو ولا البطل جيليات ، فقد حققت على الاقل شطراً من الحلم الذي كونه لدن قراءة « المتشرد » لهيكتور مالو : وهو ان أجتاز فرنسا من اقصاها الى اقصاها على بيت عائم ، واتعرف الى وجوهها المختلفة ..

ما اشد اختلاف اراضي بيكارديا الحصبة ، التي يجتازها نهر السوم عن تلك التلال الغرائبية في الكروز ، فهنا على ضفتي

النهر ، وبخاصة في جوار اميان ، تمتد الجزر الصغيرة الحصبة ، والملاحون ينتقلون في مراكبهم المستطيلة الموقرة بجميع انواع الخضار والثمر . فالارض ثمة غنية ولود ، وتصورت ان سكان ارض كهذه ، يجب ان يكونوا جميعاً اغنياء موسرين ، ولكن سرعان ما خاب ظني ، فلقد وجدت هنا البؤس الذي طالمني في كل ناحية من نواحي فرنسا .

وكان في تلك المقاطعة ، الى جانب الزراعة النهرية التي تمتد حقولها طوال ضفتي النهر ، مختلفة الالوان ، صناعة النسيج والقطن والمحمل والخام ، ولكن الثروات الفاضحة ، كانت تتكدس في خزائن اصحاب الاعمال ، وتبنى على افطع انواع الاستثمار البشري ، وكان جميع سكان وادي السوم ، المجدون في اعمالهم ، يكادون يمتنقون تحت اعبائهم الباهظة الثقيلة ، ويتكدسون في المصانع بالآلاف . وكنت تجد في ضاحية اميان كثيراً من النساء اللواتي يعملن في بيوتهن ، بشروط قاسية ان لم نقل مميتة . وما كان اجر العامل ليتعدى الاربعين بارة في اليوم ، وحين قارنت حياة عمال المناجم في الشمال ، وحياة فلاحي الكروز ، بهذه الحياة البائسة في حوض السوم ، ظهرت لي تلك ، على صعوبتها ، اخف وطأة ، وارحم مصيراً .

كان الاب والام في حوض السوم ( والاولاد عند بلوغهم سن العمل ) يذهبون جميعاً الى معامل الحياكة والنسيج ، وكانوا يعمدون يوم الاحد الى طبخ كمية كبرى من الحساء ،

في جفان ضخمة ، تكفيهم طول الاسبوع ؛ فربة البيت لا يسعها ، وهي منهكة في العمل ، ان تعمل ايضاً في إعداد الطعام . وكانت احياء المدن والقرى والحقول الغاصة بالسكان تزخر باسراب من الاطفال المتشردين الشاحين ، بين كسيح ومصدور . وكان عدد الاطفال المشوهين مرتفعاً جداً ، وكان شطر كبير من السكان العاملين ، يجد في المسكرات متنفساً لآلامه ، وارضاً تهبه السلوى والنسيان .

وفي حزيران ١٩١٨ عينت في مكتب لفحص المجندين ، فكنت اجد بين كل خمسة عشر رجلاً من « دروي » ثلاثة عشر صالحين للخدمة ، اما في حوض السوم فكان المعدل ثلاثة رجال فقط . وكان هذا اوضح دليل على وقوع تلك المنطقة ضحية استثمار لا نجد مثله في كل المقاطعات الفرنسية .

كانت المشكلة الاجتماعية ترتبط ، اكثر فاكتر ، في ذهني ، بمشكلة الحرب ، فالضحايا هم الضحايا هنا وهناك ، والاسباب واحدة !

ولكن ها هي شمس الثورة ترتفع على رحاب الشرق . ففي اوائل آذار ١٩١٧ نجح العمال والفلاحون الروس في خلع القيصر ولكن احزاب البورجوازية الصغيرة والمنشفيك ، وقد رفعتهم الثورة الى مراكز الحكم ، ارادوا استمرار روسيا في الحرب ، واتقاد النظام الرأسمالي ، وبعد ثمانية اشهر من الجهود المستمرة الضارية ، نجح لينين والبلاشفة في فضح سياسة المنشفيك وانصار « الحرب

الى النهاية « واطلاع الجماهير على حقيقتها الدامية ، هكذا جاءت ثورة اكتوبر الاشتراكية فدكت دعائم حكم الرأسماليين و كبار الملاكين العقاريين .

واقام الفلاحون والعمال ، بقيادة لينين وستالين ، نظام حكمهم الخاص ، وهو نظام السوفيات . واضحت المصانع الكبرى ، والمناجم ، والمصارف ، والمخطوط الحديدية ، ملكاً للامة ، والشعب ؛ واعيدت الارض الى الفلاحين ! والشعب الروسي ، وهو في غمرة ثورته التحررية ، اعلن السلام الى العالم . دفعني تحمسي للثورة الروسية الى العمل النضالي . فكنت ابحت في نهم عن انباء ما يجري هناك ، فاطالع الصحف والمجلات ، والكتب ، ولكنني ما كنت اجد دائماً ما ارجوه . فالحكومة والبورجوازية واكثر الصحف كانت « تناضل » ما وسعها « النضال » ، بالكذب والافتراء والادس على النظام السوفياتي الجديد...

غير ان هذه الحملات الكاذبة لم تحدث في اوساط العمال اثرها المطلوب . فقد كان اقلهم ثقافة يعرف ان ذلك الذي يبنى في روسيا هو جمهورية العمال . والقضية التي كان يناضل العمال الروس في سبيلها ويسقطون قتلى في ميادين الثورة ، انما هي قضيتهم ، وقضية العمال في جميع بلدان العالم . ومن فوق خنادق الاعداء ، والمدن المشتعلة المكتسحة ، والمناطق التي حصدها المدفعية وحولتها الى صحاري جدهاء ، حيث لم يبق الا

الموتى والاشباح ، من فوق هذا كله تصاعد النداء الذي رددته الثورة الروسية ، نداء كارل ماركس : « يا عمال العالم ، اتحدوا ! »

كنت كلما غادرت السفينة ، ونزلت الى البر ، أتصل بالمناضلين الاشتراكيين ، ووجدت في اميان فئة فوضوية واسعة النفوذ ، ولكنها لم تكن لتفقه شيئاً مما يجري في روسيا .

في آذار ١٩١٨ ، ابان الهجوم الالماني الكبير على السوم ، صدر امر عن القيادة الفرنسية العليا ، يدعو جميع الشبان لمغادرة المنطقة المهددة بالغزو . فتلقي جدي هذا الامر كما لو تلقى ضربة دامغة . لقد كنت امه الوحيد الاخير ، ورفيقه الامين ، بعد ان ذهبت الحرب باكثر ابنائه . وعند ذهابي بكى جدي ! ..

قصدت غرانفيليه في مقاطعة الواز سيراً على الاقدام . وهي قائمة على بعد ثلاثين كيلو متراً من اميان . وهناك كلفونا بحفر الخنادق امد شهر كامل ، واطلقوا سراخنا بعد ذلك . وكان الالمان قد بلغوا ضواحي اميان . وكانت قنابلهم تسقط كل يوم ، حول الكاتدرائية المحمية قدر الامكان ، باكياس من الرمل تحيط بها ، ولا ازال اذكر تقمي ازاء وحشية المهاجمين وبربريتهم ، ولا يحسن احد انني اقدس وتبنيات الماضي ، او اتمسك باوهامه ، ولكنني كنت ولا ازال احب فن العمارة ، والابداع المتخذ من الحجارة خطوطاً وصوراً ، واحس باعجاب عظيم بمخرمات الفن القوطي الرفيع ، وهي مظاهر معجبة ،

خلفها عصر دائر . ثم أيقنت فيما بعد ، ان عصرأ عظيماً واحداً وحسب - هو العصر الاشتراكي - يستطيع ان يخلق ثقافة كبرى وينشيء روائع عظمى تنبض لتضاهي تلك الكاتدرائيات التي انشأها الايمان المضطرب في حدود العمل البنائين والمثاليين .

بلغت الثامنة عشرة من عمري وقد مارست ثلاث حرف مختلفة : فكنت عامل منجم ، ثم خادماً في حقل ، فملاحاً في سفينة . ثم قدر لي ان اواصل خبرتي بالحياة فاعمل خبازاً ، من نوار الى تشرين الثاني سنة ١٩١٨ ، وكانت ظروف عملي تدعو الى الرثاء ، فقد كان الخبز ضيقاً يزخر بالبق والصراصير . وكانت مهمتي حمل اكياس الدقيق ، ومساعدة العمال الخبازين ونقل الحطب وخبز ، وتنظيف الفرن كل يوم .

\* \* \*

واخيراً اعلنت الهدنة .

وعلمت ان اهلي انتقلوا ، عند تراجع الالمان ، الى لانكسان ، في بلجيكا ، فانطلقت في اثرهم وقد نقد صبري ، وحركني شوق مذيب الى معانقة اولئك الذين فصلتني عنهم الحرب .

والمسافة بين اميان وتورنيه تبلغ مئة وعشرين كيلو متراً . فسرت في صحبة بعض الرفاق ، سيراً على الاقدام ، بجنازين المناطق المكتسحة المدمرة . ومررنا بنواحي اتخذت اسمائها ،

في البلاغات العسكرية ، ما يشبه هالات الاساطير ؛ رأيناها فلم تكن اكثر من خرائب وآثار يشبه بعضها بعضاً ؛ هكذا تلاثى تنوع الحياة في وحدة التخريب ورتابة الموت . لقد ابقت الحرب مشاهد لا تنسى : من ادواح حور ضخمة ، مسجاة على جوانب الطرق ، ووربي حفرت القنابل صدورها ، وافواه براكين موحلة ، وبجيرات مياه سود ، تطفو على سطحها آلات حديدية يتاكلها الصدأ ، وحفر وهوات وأتارويه وخنادق ، واودية واسعة تصل الاسلاك الشائكة والعوسج اليابس بين حافاتها . انها المناظر الرعب !

وفي القرى ، او ما كان من قبل قرى ، يتظنى مكانها بآثار هذا الغبار الاحمر من بقايا القرميد المسحوق ، ترى بعض الحجارة في الارض قد سلم من القنابل ، وظل يوميء ، بصعوبة ، الى وجهة الطريق ... ولم يكن امامنا ما نهتدي به الا بعض اللوحات المغروسة هنا وهناك في غير ترتيب ولا نظام ، وعليها تقرأ بحروف ملتوية حائرة : بيبي غراناي ، ليا فان ... هنا كل قبضة من التراب غمست بالتراب والدموع . نحن نسير على الغبار الذي كان جيوشاً ، وعلى الاديم الذي كان اجساماً تفيض بالحياة والبهاء . وكانت تظالغنا اسماء تبرز فجأة بروز الاشباح العائدة : نود ترام دي لوريت ، وسوشيه ، وليبرون ديزاراب ... واخيراً بلغنا لان ، وكانت اكواماً فظيعة من البيوت المهدمة المحصودة ، حبت تتمطى الحفر الملأى بالمياه القذرة وتتشاءب في

وجه السماء ...

وفي احدى الامسيات ، بلغنا نواييل غودو . ورأيت القرية التي قضيت فيها طفولتي وهي بين اشداق الحراب ! وها منزلنا لا يزال قائماً ولكن منزل عمي انى جواره سحقته قنبلة . ورأيت المعامل مهدمة . اما الحفرة ذات الرقم ٤ حيث عملت ، فلم تكن الا سرداباً من القرميد والحجارة والاختشاب الضخمة والدعائم الفولاذية والجماجم ... وكان الالمان قد نسفوا المناجم قبل انسحابهم وفجروا الديناميت في الحفر واغرقوها بالمياه ...

قضينا الليل في كوخ حقير ، فئنا اليه من قسوة الريح والامطار ، وفي فجر اليوم التالي له ، استأنفنا المسير وقلوبنا منقبضة كئيبه ...

الحرائب ... الحرائب دائماً امامنا ... ها هي اورشي ثم بلجيكا، ها هي تورنيه وآث واخيراً لانكسان . وهناك وجدت اهلي . وما عدت اشعر بتاعب السير المضي الطويل في نواحي ا تحت طرفاتها ... ووهبتني نشوتي في معانقة امي وابي قوى جديدة . ونسيت ، منذ ساعتى ، اعوام الفراق الاربعة ، ومشاعر القلق المميته ، وسائر المصاعب والاختطار ، كنت كالحارج من كابوس ، فحياتي ستعود سيرتها الاولى ...

وفي الثالث من كانون الثاني ١٩١٩ عدنا الى نواييل ، وعكفنا على العمل ، بشجاعة ، وسط الحرائب والدمار .

واستخدمت في البدء لاعادة بناء الحُط الحديدي بين لان ودواي . ثم عدت للعمل في الحفرة رقم ٤ في مناجم « دورج » .  
وكننت أزداد شغفاً ، يوماً بعد يوم ، بالعمل النقابي ،  
والحركة العمالية ، والذال السياسي . وكننت اشعر بان في هذه  
الحقول ايضاً ثمة حاجة ملحة لاعادة بناء كل شيء .

وفي كل سبت كننت ابيع صحيفة « المنبر » النقابية . وكنم  
كانت سعادتني عظيمة بزم نجت في بيع ٣٢ نسخة منها !

كان موقف فرنسا من الناحيتين السياسية والاقتصادية  
يخلق ، على نحو سريع ، جواً ثورياً في اوساط العمال . فارتفاع  
الاسعار وغلاء الحاجات ، وسقوط قيمة الفرنك ، وازمة وسائل  
النقل ، وغلاء الفحم والسكر ، وصعوبات التحول من الاقتصاد  
الحربي الى الانتاج في عهد السلم . كان كل هذا يخلق  
اضطراباً لم تنجح في تهدئته جميع التدابير الحكومية ،  
كقانون « الثماني ساعات » الذي فرضته الجماهير على حكومة  
كليمانصو ...

ومثت موجة من الاضرابات في ارجاء البلاد . ولكن لم  
يكن ثمة حزب ثوري منظم قوي ، فلم يؤد هذا الوعي العمالي  
الى نتيجة عملية ، ألم يقل لينين انه « لا حركة ثورية بلا نظرية  
ثورية ؟ » .

اخذت الطبقة العاملة تبحث عن طريقها ، يكتنفها اضطراب

عميق ، وتعرضها تقاليد ما قبل الحرب ، وتفت في عضدها الروح الفوضوية النقابية ، والروح الانتهازية المسامة... ومن ٣٤٠٠٠ عضو في سنة ١٩١٨ ارتفع عدد اعضاء الحزب الاشتراكي الى ١٥٠٠٠٠ عضو سنة ١٩٢٠ . وبلغ اعضاء الاتحاد العام للعمل (السي جي تي) مليونين ونصف المليون . وقامت الطبقة العاملة تطالب بوضع حد للتدخل ضد السوفييات ، وتسريح الجيش على الفور ، واطلاق سراح المعتقلين السياسيين والعسكريين . وكانت الطبقة العاملة الفرنسية تفهم حق الفهم النضال المجيد الذي تخوضه الجماهير الروسية وتحاول ان تعينها ما استطاعت الى ذلك سبيلاً .

انخرطت في الحزب الشيوعي وفي النقابة، في آذار عام ١٩١٩، وانضمت الى الحزب مع رينيه فرواسار ، وهو فلاح اعدمه الالمان بالرصاص فيما بعد ، بمقاطعة اليون عام ١٩٤٢ . وكنت اناضل ، في قلب اللجنة للانضمام الى الاممية الثالثة . اما في نقابة عمال المناجم فكنت اناضل لضم هذه النقابة الى (السي جي تي) وباله من عهد من النشاط السياسي العنيف، والمنازعات الصاخبة! ولقد صوتت الفرقة الاشتراكية في نوايل ، بعد عدة اسابيع من اجتماع شعبي كبير خطب فيه فايلان كوتورييه ، صوتت للانضمام الى الاممية الثالثة بـ ٦٦ صوتاً مقابل خمسة ، وكان ذلك نصراً حقيقياً في منطقة يسيطر فيها القادة الاشتراكيون الذين ما كان بوسعهم ان يمنعوا الانسحاب من الاممية الثانية ، لكنهم

يؤخرون الانضمام الى الاممية الثالثة (١) .

وفي مؤتمر ستراسبورج ( شباط ١٩٢٠ ) صوت ٤٧٩ نائباً عن البادي كاليه ، و ٣٦٣ كانوا ضد الاممية الثانية و ١١٧ معها . وفي نهاية الامر انشطرت مندوبية البادي كاليه الى شطرين : النصف ( ٢٣٢ صوتاً ) أيدت إعادة انشاء الاممية على اسس ثورية ( وكان يمثلها لوجيه ) والنصف الآخر بقيادة بلوم ، ايد الاتجاه اليسيني المنشفيكي ...

ونجح بعض تجار السياسة في اخفاء طلبات انضمامنا الى الاممية الثالثة ، فلم يكن امامنا الا مواصلة النضال ، وتكاثرت الاضرابات والحوادث في البادي كاليه والشمال ، عام ١٩١٩ ، وعاد عمال المناجم وعمال النقابات الاخرى الى الصراع . وبدا عام ١٩٢٠ اشد هولاً واقوى عواصف .

وفي شهر آذار ١٩٢٠ ، وفي غمرة الاضراب ، وحين تعييني

---

( ١ ) ادت الحرب الى افلاس الاممية الاشتراكية وانهارها ، وباستثناء الحزب البلشفي ، نرى جميع الاحزاب المنبقة عن الاممية الثانية قد غرقت في غمار سياسة الحرب ، وقام كل منها يؤيد البورجوازية في بلده . ومنذ اول نوفمبر ١٩١٤ اعلن لينين قائلاً : « ماتت الاممية الثانية ... عاشت الاممية الثالثة » وفي آذار ١٩١٩ تأسست الاممية الشيوعية الثالثة ، وتجمع حول البلاشفة سائر الاحزاب العمالية التي كانت ترغب في استعادة مبادئ ماركس الثورية ، وكان القادة « الاصلاحيون » يناهضون الاممية الثالثة المتحررة من الانتهازية ، ويدعون الى بناء اممية تحفظ في صدرها الاحزاب الاشتراكية وقادتها المفلسين الفارقين في السياسات الحربية المتعاونة مع البورجوازية .

مندوباً عن قسم نوابيل في اللجنة النقابية بدورج ، دعيت الى  
ثكنة الرماية رقم ٧٢ . وفي اثناء احدى العطلات اشتركت في  
مؤتمر عمالي ، وانا لا ازال في بزة الجنود ، وخطبت اول مرة ،  
في الجماهير ، وناهضت يومئذ آراء نائب المنطقة الاشتراكي ،  
ودافعت عن اتجاهات الاممية الثالثة ، وكان عمال المناجم فرحين  
بالاصفاء الى احد ابناء منطقتهم يتحدث اليهم عن مشاغلهم ،  
وبؤسهم ، ويدلهم على طريق الخلاص التي سقها لينين : وكانوا  
يقولون وهم يتدافعون بالمرافق : « انظر... انه الصغير توريز...  
لقد كبير... »

وفي الثكنة ثبرت على المطالعة والعمل . وواصلت النضال  
ايضاً . وكنا نتناقش كل مساء في موضوع الثورة الروسية  
والاممية الثالثة او نرسل اسم مشترك جديد لصحيفة الاومانيتيه.  
وفي كانون الاول عام ١٩٢٠ كان تأثرنا عظيماً ونحن نتابع  
المناقشات في مؤتمر تور ، وكانت أحاديث كلارا زيتكان العارمة  
الحارة وخطب مارسيل كاشان ، تكهربنا.

واعطى اتحاد البادي كاليه هذه المرة اصواته للانضمام الى  
الاممية الثالثة بالاكثريه ، اي بـ ٢٦٧ مندوباً يتزعمهم كاسان  
وفروسار ، صوتوا للانضمام و ١٤٥ صوتوا للانضمام مع بعض  
التحفظ ، اما جماعة بلوم فقد اعلنوا حيادهم ودعوتهم الى « حركة  
جديدة » . وكان عددهم ٦٧ .

كان ذلك نصراً ساحقاً للاممية العمالية الثورية ، لقد عادت الطبقة العاملة الفرنسية تسير الى الامام . ونحن الشبان كنا نتنفس ملء صدورنا هذا الفواء الحر... ولكن امام الشيوعيين طريق طويلة.. وخبرة صعبة عليهم ان يكتسبوها ، ليعرفوا الرجال السياسيين المحيطين بهم ، حق المعرفة ، وليكتسبوا تجربة النضال والدربة فيه وليتعلموا كيف ينتصرون وفقاً للظروف الخاصة بفرنسا...